جرائم الآباء

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

عنّ لى أن أتناول بحثى اليوم ، موضوع بعض جرائم الآباء فى حقوق أبنائهم ، هـذا الموضوع الجوهرى الحساس ، مدفوعة الى كتابتـه بالكثير من الوقائع الحقيقية الأليمة التى قدّر لى أن أشـاهد بعضها على مسرح الحياة ، وأن ألم بالبعض الآخر من القصص الدامية التى تسوقها لنا الأقدار كل يوم ، فتملأ مسامعنا بمآسى الكثير من الأطفال التعساء ، الذين قدّر لهم أن يكونوا أبناء لآباء غير أكفاء ، فتحملوا تحت ستار أبوتهم الكاذبة كل ظلم و إجحاف .

وما مقالتى هـذه فى الواقع إلا نفثة لهؤلاء الأطفال المناكيد ، ضحايا قضايا الطلاق ، نفثة هى صدى لصيحاتهم المكتومة ، وزفراتهم المحتبسة ، عسى أن يكون لها فى نفوسهم المزقة بعض السلوى ، وفى حياتهم المظلمة قبس من الضياء .

وبما أننى قد تكلمت كثيرا فى موضوعات سابقة عن مشاكل الطلاق وتعدد الزوجات ؛ فإن موضوعى اليوم سيكون مقصورا على عرض نتائج استهتار الآباء بالعلاقة الزوجية ، وما فى ذلك من جناية على أبنائهم ، وعلى المجتمع بهم .

ومما لا ريب فيـه أن أمثال هؤلاء الآباء ، ليس لهم وجود تقريبا إلا فى مجتمعنا المصرى ، حيث يعتبر الزواج والطلاق أسهل بكثير من شراء ثوب جديد ، هنا فقط ، حيث تنتشر فوضى التلاعب بروابط الأسرة ، تكثر مخازى الآباء وتنتشر جرائمهم فى حقوق أبنائهم الذين هم بناة المجتمع الجديد .

و إنه لمن المخجل حقا أن نرى بين ظهرانينا أمثـال هؤلاء الرجال ، الذين لا يستنكفون من العبث بالشرائع سعيا وراء أهوائهم وأنانيتهم ، متناسين أطفالهم التعساء ، ولا يضيرهم

أو يخجلهم أن يدفعوا كل يوم الى المجتمع بأبناء جدد يضيفونهم الى سجل التعاسة والبؤس ، ولا يهمهم إلا ما تصوره لهم عقولهم الخاوية من سعادة مرتقبة فى كل زواج جديد ، فيتخبطون فى طرقاتهم دافعين أمامهم أطفالا أبرياء الى مستقبل مظلم مجهول ، لا يذوقون فيه إلا العلقم ، ولا يتقلبون الا على فراش من الألم والدموع .

ومع ذلك فالرواية ما زالت تمثل كل يوم مرات ، والمسرح عامر أبدا بالضحايا ، يتطلع الى المزيد ...

هؤلاء الضحايا الذين لا يشعر بهم آباؤهم إلا بعد أن يصطدموا بمشكلة النفقة ، و بعد أن يضطروا للوقوف أمام المحاكم حيث يتراءى للملأ ما خفى من أخلاقهم وحيث يتناقل الجميع قصص مخازيهم وفضائحهم ... ... عندئذ فقط يتنبهون للحقيقة ، لا ليكفروا عن أخطائهم ، بل لينتقموا من أطفالهم التعساء بانتزاعهم من بين أحضان أمهاتهم لضمهم إلى جناح الخدم فى منزل الزوجة الجديدة .

هذه ظاهرة مؤلمة ، ولكنها مع الأسف حقيقية تحدث فى مجتمعنا كل يوم ، وليس منا من لم ير أو يسمع شيئا عن قسوة امرأة الأب وعنتها ، وما يصيب من يلقيهم القدر بين يديها من أبناء الزوج ، وليس منا من يجهل كيف تتفنن فى صنوف العذاب لهم وكأن بينها و بينهم عداوة خالدة لا تزيلها الأيام . ولا غرو فى ذلك فهى تعتقد أن أبناء الزوجة الأولى هم أداة الثأر لها من منافستها على حد ظنونها الخاطئة .

و إنى لأسوق لكم هنا قصة صغيرة حقيقية لمستها بذاتى ، ولم يزل لها فى نفسى جرح أليم ، هذه القصة لأب متزوج ، جعل من الزواج والطلاق هوايته المفضلة ، وجعل لكل زوجة مطلقة عنده طفلة أو طفلين .

و إنه لمن سوء الحظ طبعا أن تكون للانسان قرابة ولو بعيدة بأمثال هذا الرجل ، وأن تضطره الظروف السيئة طبعا إلى زيارة عائلته ، ولكن الحقيقة مع الأسف أننى فعلت ذلك ، وقضيتها ثلاثة أيام ، رأيت فيها من المآسى ما يمزق القلوب ، ومع ذلك فهى مآس مستترة لا تتعدى جدران المنزل .

لذلك الرجل جملة أبنـاء جمعتهم فى منزله الجـديد واستعاض بهم عن الخدم . فكبراهم شابة أوشكت أن تودع العقـد الثالث من عمرها ، جميلة رغم شدة تحولها وشحوبها ، قـد جعـل منها ظلم الأيام شبحا ساريا ، فاذا مشت فهى تتمـايل على نفسها من فرط الإعياء ، وإذا تكلمت فلتخرج كلمات مضطربة خائفة ، وهذه هى الخادمة الأولى فى المنزل ، عليها القيام بجميع شؤونه ومسئولياته ، من طبخ وغسل ومسح أرض وغسل أوانى المطبخ ، ومكانها المختار الانزواء فى ركن المطبخ طول اليوم ، وعدم الظهور أمام الضيوف .

وناهيك اذا جرؤت المسكينة يوما على الادعاء أمام أحد بأن هذا البك المحترم هو والدها ، فحدث ولا حرج عما يصيبها من أنواع الايذاء وما ينالها من الإهانات والقسوة .

وللزوجة فى ذلك عذر عجيب ، وهو أنها لا تود أن يعلم انسان بأن زوجها قد تزوج من قبلها ، حرصا على مركز عائلتها الكبيرة .

أما باقى الأطفال ، الذكور منهم والإناث ، فمكانهم فى (قـلة) أبيهم غرفة السـطح العارية ... يظلون بها دائمـا انتظارا لعمود أختهم ، ولا يغادرونها إلا إذا احتاجت الهـانم ربة البيت الى شىء هام ، أو وقت شراء الخضراوات ولوازم المنزل ، أو لخدمة الضيوف دون النفوه بكلمة غير (نعم وحاضر) وجميعهم مثال البؤس والمرض ، لم يترك السعال الحاد صدر أحدهم إلا وحالفه .

واذا كنت جريئا وأمكنك أن تتحدث عن ضرورة التحاقهم ببعض المدارس احتراما لمكانة أبيهم ، فاجأتك الزوجة بأنها لا تستطيع أن تقوم بالمصاريف المدرسية لهـذا الجيش من الصعاليك وتحرم أبناءها — وأبناء البك طبعا — من التربية العالية التى تتفق ومكانة عائلتها الاجتماعية .

وكأن حرمان هؤلاء التعساء من منازل أمهاتهم ورعايتهن قد حرمهم أيضا من التمتع لا بمال أبيهم وعنايته فحسب ، بل من الانتساب أيضا الى أبوته .

ولا يمكنك طبعا مهما كنت كريما أن تفكر فى إبداء أى نوع من أنواع العطف لهؤلاء التعساء ، لأن ذلك على حد قول الزوجة يجعلهم يتمردون عليها و يعتقدون أنهم مساوون فى المكانة لأبنائها المفضلين .

فقد حدث أمامى بهذه المناسبة أن ابنة الزوجة كانت تلعب بإحدى الدمى فسقطت منها على الأرض وكانت صغرى أبناء الزوج على مقربة منها فاقتضاها بعض الحوائج فسارعت لالتقاطها لها، وبما أنها كانت هى الأخرى طفلة ساذجة فقد أبقتها قليلا بين يديها وفى عينيها تمن وأسف ، وعندئذ انقضت ابنة الزوجة عليها واختطفتها منها وهى تقول (إنت يابنت ياخدامة عايزه تلعبى بعروستى)، وضحكت الأم للنكتة البارعة وتأملت أنا، ولكننى مع ذلك صمت إذ لم يكن لى من الصمت بد وقتذاك .

و إننى لو أردت الإطالة فى هذا الأمر لذكرت عجبا، ولو توهت بكل ملاحظاتى عنه لما عبرت عن بعض ما جال فى نفسى من عبارات الاشمئزاز والاستنكار .

هذه هى بعض أنواع المعاملة التى يلقاها أبناء الطلاق، ففى محيط ذلك الجحيم يشبون ، فإما أن تنتهى حياتهم بين هاتيه الظلمات، و إما أن يثقل كاهلهم الظلم فيفرون الى المجتمع مأوى الجميع، فيكونون فيه نواة فاسدة ، تخر فى جنباته وتبشره بجيل فاتر وضيع ، جيل يتفشى فيه الإجرام ، وتهون أمام أبنائه كافة سبل العيش مهما انحدرت الى الجريمة .

ومن هنا يتضح لنا كيف يسىء الرجل المزواج الى المجتمع ، وكيف يعتبر مجرما أمام محكمة الانسانية ، يستحق أشد أنواع الاضطهاد والاحتقار .

و إنى أرى مما تقدم أن مجرد سلب السلطة الأبوية الذى تهتم به وزارة الشؤون الاجتماعية من أمثال هؤلاء الآباء أقل مما يجب من أولى الأمر حيالهم ، لأن أطفالهم الأبرياء يتطلعون إلى من يدافع عن مستقبلهم الضائع بحرمان المجتمع من فائدتهم، وهذا لا يتأتى إلا إذا سنت القوانين الشديدة لحمايتهم من شرور آبائهم ، تلك القوانين التى تضرب بيد من حديد ، فتحد من عبث أولئك المستهترين من الرجال حتى تتفتح عيونهم على حقائق مهازلهم واستهتارهم ، لأن سلب السلطة الأبوية منهم سيكون غالبا بعد ما يبلغ الأطفال مبلغ الفهم والادراك ، حيث يكون هؤلاء الآباء قد نجحوا فى رسم مستقبل أبنائهم كما شاء لهم هواهم. ولذا فان سلب سلطتهم الأبوية فى ذلك الوقت لن يغير من الأمر الواقع شيئا . وفائدته لها أثر عظيم إذا كان الأمر معكوسا فقط، أى إذا كانت الأم هى التى قامت بتربية طفلها على نفقتها ورسمت له مستقبلا مكنه من شق طريقه فى الحياة فأصبح نافعا لذاته وللمجتمع . عندئذ فقط حيث

لا يكون هناك أى حق للآباء على أبنائهم ؛ تظهر جيدا نتيجة سلب السلطة الأبوية منهم ، فإنه كثيرا ما يحدث أن نرى أبا ليس له حق فى الأبوة إلا اسمها ، كثيرا ما نراه يقف فى طريق أبنائه ، إذا فتح الله عليهم بمستقبل حسن ، مستغلا لفظ الأبوة فى سلب أموالهم ، وقد تبلغ به الجرأة أحيانا الى حق مقاضاتهم وذلك اذا ما سدّت فى وجهه أبواب الرزق وانتقم الله لأبنائه الضعفاء .

وخير ما يمكن عمله حدّا لتلك الجرائم المتواصلة هو سن قانون يحرم على الآباء ضم أبنائهم اليهم إذا كانوا متزوجين من غير أمهاتهم على أن يلزموا بنفقاتهم حتى يبلغوا سنا تؤهلهم للكسب ، وتقطع هذه النفقة إذا تزوجت الأم ، وددنا أيضا لا يسمح للرجل المتزوج بضم أبنائه ، لأن زوج الأم مهما كان قاسيا فلن يبلغ فى هذا المضمار بعضا من طغيان زوجة الأب .

وإنه لمن المفروض طبعا ألا يسىء زوج الأم إلى أطفال المرأة التى أحبها وارتضاها زوجا له ، وإننا إذا أحصينا مآثر أزواج الأمهات على غير أبنائهم لما استطعنا لها حصرا ، ولوجدنا أنه خير للطفل أن يظل فى حضانة أمه المتزوجة على أن يكون مع أبيه المتزوج ، وقد يتهمنى هنا بعض الرجال بالتحيز إلى بنات جنسى ، ومع ذلك فإننى أترك لضمائرهم الحكم الصحيح فى هذا الأمر ، مع ثقتى و إيمانى بأننى قد نحوت فى مثالى هذا نحوا إنسانيا للصالح العام بعيدا عن التطرف والمغالاة ، نحوا هو أمنية تتردد فى قلوب الكثير من الناس ممن يميزون الحق ساطعا من بين الظلمات .

أما كان الأطفال ممن وسمهم القدر بميسم الشقاء ، ففقدوا أمهاتهم ، ولم يكن لهم بد من الالتجاء إلى حجيم زوجة أبيهم ، فليس هناك كما أرى سوى حل واحد ، وهو أن يضمن أولو الأمر ما يكفل لهم شق مستقبلهم فى الحياة على نحو تفيد منه الانسانية و يرقى المجتمع ، وذلك بتكوين هيئة حكومية اجتماعية ، تكون مهمتها بحث حالات من يتقدم إليها ممن فاض بهم الألم وطفح الكيل من عسف أبيهم وجور زوجته ، حتى يمكننا أن نرغم هؤلاء الآباء غير الأكفاء على العناية بمستقبل أبنائهم ، و بذلك نصون الجيل الجديد من عبث الاستهتار بالشرائع ، ونرقى بمستواه كما نتمنى أن نراه .

وأحسبنى فى هذا المقال قد أديت رجاء لنفوس كثيرة ذاقت من جرائم الآباء ما ذاقت ، وقاست من ظلم الأقدار ما قاست .

ولست أشك فى أن هذه الكلمة ستجد من أولى الأمر اهتماما سيذكره المجتمع مابقى ، وسيدونها لهم الدهر بحروف نورانية بارزة .

زينب محمد حسين